صندوق البريد

الاستاذ الهنداوي وقصة ((العودة))

من عادتي الا يفوتني شيء من كتابات استاذي خليل هنداوي ، وقد يكون مرد هذا ، الى اصالة الكاتب وعمق الملاحظة عنده وتعدد جوانب شخصيته الادبية ، اكثر منه الى الرباط الروحي الذي يشدنا اليه ، منذ ان تتلمذنا عليه يوم كنا نتلقف دروسه في الادب منذ عشرين سنة او تزيد ، على مقاعد الدراسة !

ولعلها المرة الاولى ان احس حاجة الى رد الحكم الذي اصدر ، وقد تراءى لي ان فيه شيئا من تجانف واعتساف ، هما اقرب الى .. التجني!

كان ذلك في العدد الماضي من «الاداب » ، في «قرأت العدد الماضي...» وهو يعقب على القصص التي فيه ،وعلىالتحديدفيحديثهعن قصة «العودة» للاديبة الفت عمر باشا الادلبي .

وانا اولا ، اشهد انني اقرب الى رأي الاستاذ هنداوي مني الى رأي الدكتور سهيل ادريس فيما يتصل بمذهب الالتزام في الادب ! واشهد ثانيا انني قليل الاحتفاء بالقصة في سوريا ، اجمالا ، لسوء رأي مني في هذا اللون من الادب عندنا ، فهي ما زالت تحبو وتتعثر وتلهث على طريق بعيد وعر ، باستثناء قصص صديقنا الموهوب الدكتور عبد السلام العجيلي، فقد وصل الدكتور العجيلي في كثير من اقاصيصه الى القمة !

اما قصة (العودة) للاديبة السيدة الفت عمر باشا الادلبي ، التي اوسعها الاستاذ هنداوي لذعا وتجريحا ، فقد تضمنت ، رغم كل شيء ، التفاتات انسانية عالية ، لا ادري لم اغفلها الاستاذ هنداوي او تغافل عنها ..!

ففي قصة «العودة» للاديبة الفت الادلبي جانب انساني وددت لو الح عليه الاستاذ هنداوي، هذا الجانب الفني او الالتفاتة القومية ـ الانسانية التي نريدها ان تشيع في فن القصة العربية او في النتاج الادبي العربي عموما ، هي ان صاحبة القصة في سذاجة فنية محببة وعفوية هادئة صافية ، توخت دونما افتعال ، ان توقظ النبل في اعماق ذلك العربي النازح نتيجة للاعتمال النفسي وهو يتسمع الى حوار الخليلين الخليين ، فاهتدى فجأة الى وجوده والى غاية هذا الوجود وانقلب على واقعه ليكون كما ينبغي له ، عضوا فاعلا في ركاب الحق والخير .

فقصة (العودة) كما نجد، حافظ على الجو القومي وعلى الجو الانساني معا ، بهذا الربط العفوي بين المثل العليا القومية وبين المثل العلياالانسانية في يسر لا اصطناع فيه ولا ثقل .

هذا المغزى الفني ، هو لوحده ، وثبة بارعة تجعل للقصةقيمتهاالجمالية الخاصة وتدل بوضوح على ان لدى صاحبة قصة «العودة» من الامكانات في ادب الاقصوصة ما يهيء لها التحليق والابداع ايضا !

وفي القصة جوانب اخرى فيها من البراعة شيء كثير الى حد لم يستطع معه الاستاذ خليل هنداوي نفسه الا الاقرار بها ، منها لفتة الكاتبة الى اعتراف بطل القصة بالجريمة التي ارتكبها هو ووجهاء مدينته الذين الهاهم الترف عن القيام بواجبهم ، هذه اللفتة التي قال عنها الاستاذ هنداوي «ان فيها اعترافا لا تكاد تسعه السطور » !

وفي قصة (العودة) ايضا عنصر ايجابي ، هو الروح التفاؤلي ، بان الحياة ليست مجموعة من الحقائق التافهة لا تستاهل ان نتأملها وان نعيشها ، ولكن الحياة شيء ثمين ، فهي مجموعة من القيم الموجبةوالمعاني التي تزخر بالسمو ، ومن هنا كانت جديرة بان نتعشقها ونحيا كل دقائقها بفرح ونبالة ، ومن الجريمة بحق انفسناوانسانيتناانتهرب منهااو نستريب في الوجود الحقيقي لتلك القيم الفاضلة !

هذه الرموز الحية في قصة (العودة) عناصر اساسية في البناء الفني لادب القصة ، وانها لرموز فنية انسانية حفية بالاشارة والاشادة ، وهي دليل على ان صاحبة القصة ، كأديبة ، لا تعيش على البراعم المغلقة ولا تحيا على جفاف ، ولكنها تتمرس بالتجربة القومية ، تجربة المجتمع العربي ، تمرسا فيه تجاوب واندماج وحركة وخصب ،وهي بواكير تبشر بالخير وتبعث على الرضى

دمشق ـ ناجي مشوح

★

مشكلة الحوار

(قرأت العدد الماضي من الآداب) ، وفي هذا الباب بالذات ، العزيز على نفسي ، الطموح في ان ياخذ اكبر كمية ممكنة من وقتي ، في هذا الباب بادرة حسنة تضيفها (الآداب) الى سجل حياتها في الجهاد من اجل خدمة الادب ، اذ عهدت بالتعقيب على كل فن من فنون الادب ، لاديب صال وجال في ميدان الادب العربي الحديث . ولن اكتم (الآداب) ما يجول في خاطري : اذ لو كلفت نفسها ـ على سبيل اتمام العمل ـ فوكلت امر الشعر لشاعر ، والقصص لقاص ، والمقالة لكاتب ، لكان من الاجدى والافضل لها في سبيل تحقيق رسالة عاهدت نفسها على سلوكها ، وهي خدمة الادب لوجه الادب .

فقد قال الاديب الاستاذ خليل الهنداوي في تيار من تبيان المحاسن والعيوب ، تعقيبا على (العودة) للقاصة المعروفة الفت ادلبي : (واما الحوار فلم يكن حقيقيا واقعيا بالروح الواقعية ، بل كان اكثره ثقيلا على النفس حين يطغى عليه الجدل المنطقي . بل كأن بعضه جاء منقولا عن غير لغة . ولا ادري أيكون هذا الحوار اصدق لو جاء بلغة دارجة ؟) . وفي مكان آخر ، وفي معرض الحديث عن (الحاج حمزة) يقول الاستاذ هنداوي ايضا: (واما الحوار فيها فقد جاء باللغة الدارجة المصرية دون ايغال في العامية ، وان كنت لا احبذ اي حوار بالعامية ...) .

وهذا بالذات ، ما دفعني للكتابة . لا لاستهجن ما استملحه او استملح ما استهجنه الاستاذ الناقد . بل لاسجل وقائع مشكلة هامة ارى لزاما على الادب العربي معالجتها بروية وتؤدة ، همهما الوحيد خدمة الادب وتيسيره للقيام بمهامه وواجباته على اكمل وجه . هذه المشكلة هي مشكلة الحوار في قصتنا العربية الحديثة . وليس يخفى ما للحوار من اهمية بين العناصر المكونة لمجموع القصة ، واثرها في النفوس . ولست بحاجة الى الدليل فلقد اورده الاستاذ هنداوي نفسه عفويا ، اذ افرد في تعقيبه على كل قصة فصلا من التعليق على حوار القصة ومدى فعاليته في نفس القارىء .

لقد عرف الغرب وخبر فن القصة قبل العرب بمدة غير وجيزة . فالقصة العربية ، اذن ، حديثة العهد . ولا اشك قط في انها لا تزال تستقي تطورها ووسائل انعاشها من قصة الغرب ، اذ لم يشتد عودها ، بعد ، ويصلب ليتمكن من الصمود امام فترة الانتقال والتطور من جهة ، وفترة الخلق والتجديد المبدع من جهة اخرى . فليس عجيبا ، اذن ، ان ينسب لها شيء من البلبلة ـ مبدئيا ـ في الحوار ، واعتماد بعض قصاصينا على العامية ، وكل همهم الانتقال بواقع القصة ـ ولو كانت خيالية ـ الى مسرحها الحقيقي الذي يعدم وجود اللغة الفصحى كلغة للتخاطب بين شعوبه ... واعتماد البعض الاخر على الفصحى ، اذ لو كانت لا تخلق القصة في جو مشبع بحياة الشعوب ، الا انها تؤدي واجبا قد يفوقه من الارتفاع بمستوى الشعوب الى مصاف الادباء ، ليتتبعوا ما يجول في خواطرهم وما يتطور اليه تفكيرهم .

المشكلة ، اذن ، مشكلة عامية وفصحى . وهما بالفعل ـ اي العامية والفصحى ـ قائمتان متطورتان لا غنى لاحداهما عن الاخرى . اذ ان وجودهما مجتمعتين ضرورة تحتمها طبيعة الانسان الحاس العاقل ، وما العامية الا وليدة حاسته ، والفصحى وليدة عقله . وهباء ما يدعيه البعض من وجوب الارتفاع بالمستوى الفكري ... ومن ثم اللغوي . اذ لا يفكر الانسان ثم يلغو ، بمعنى أن التفكير سابق للتعبير ، بل هو يفكر ويلغو في وقت واحد ، وما التفكير الا فكر لاغ ، وما التعبير الا لغة متفكرة . اقول ان للعامية وجودا مستقلا لا يمكن الاستغناء عنه بالفصحى ، والعكس بالعكس . وهذا الدكتور كمال الحاج في كتابه (فلسفة اللغة) يورد الادلة ثم يقول : (ان العامية فصيلة لسانية قائمة بذاتها . هي لنوع خاص من حياة الوجدان . لها نظامها الصوتي والتركيبي . لها مفرداتها واقتباساتها وقياساتها . لها ادبها ايضا . ونقول ، في الوقت ذاته ، بان الفصحى فصيلة لسانية قائمة بذاتها . هي لنوع خاص من حياة الوجدان . لها نظامها الصوتي والتركيبي . لها مفرداتها واقتباساتها وقياساتها . لها ادبها ايضا ...)

ولكون الحوار العامي ، انما هو تفكير عامي معبر ، فليس من الطبيعي ، اذن ، ان تعتمد قصة على حوار عامي ، وندخلها في مصاف آداب الفصحى. وليس من الطبيعي ، ايضا ، عدم وجود الادب العامي بجميع فنونه : شعر ومقالة وقصة ، اللهم الا القليل من الشعر الزجلي ، والذي يتعرض بين حين وآخر لتهكمات الادباء ، والحط من قدرته ومنزلته ، مما يفت في عضده ويقعده عن الحركة . ولسنا ندري ايكون ادماج بعض ادبائنا للحوار العامي خلال القصة الفصيحة اعترافا وتشجيعا له ؟! أم انه محاولة للافناء وانصهارها داخل الفصحى ؟!.

لقد قام الادب العربي وقعد ، لسنوات خلت ، حتى يعرف مصيره : اهو للعامة أم للخاصة ؟!... وثارت ثائرة الادباء ، وتنافسوا في القول والتحبير حتى وصل بهم الحد الى تبادل الشتائم .ثم انعكفوا على انفسهم خاضعين خاشعين ، دون التعرف الى نتيجة مرضية ، يرضى عنها الاكثرية ان لم يكن الجميع . أليس هذا دليلا آخر يحق لي الاعتماد عليه ، وتقرير ان للعامة ادبهم المستقل ، وللخاصة ادبهم المستقل ايضا ؟ وذلك دون محاولة من احدهما لاستعمار واذلال الآخر ؟!...

غير انني كنت ارجو ان يشتد خلاف الادباء ـ على ان يكون رياضيا ـ وينقسموا على انفسهم : فئة تكتب لنفسها محملة غيرها الصعاب والمشقات في الصعود الى برجها العاجي . وفئة تنزل الى مستوى العامة لتكتب لهم وتعبر عن احاسيسها واحاسيسهم . لو حدث مثل هذا ، لظهر واضحا جليا ادب العامة في سيره جنبا الى جنب مع ادب الخاصة ، ان لم يسبقه اشواطا بعيدة . لانني اؤمن كل الايمان انه يجد من القراء اضعاف ما يجد ادب الخاصة . هذا فضلا عن الشوط البعيد بين الرأي العام المنساق الذي يخاطبه الاول ، والرأي العام النابه الذي يجعل من الكبة قبة في نقاشه ، والذي سيضطر الثاني لمواجهته والكتابة له .

وهكذا نجدنا مضطرين لاستعمال العامية وبعض امثالها ـ يجعل من الكبة قبة ـ لحاجتنا الملحة للعامية وادابها ، حاجتنا للفصحى وادابها ايضا . ولا ننس اننا عاميون قبل ان نكون فصحاء.

وبعد ... فليس بمقصودي معالجة هذه القضية والافاضة فيها من جميع نواحيها المتداخلة المتشعبة ... وانما قصدت تسليط بعض الاضواء على مشكلة ارى من الواجب مناقشتها والاستقرار على رأي فيها . وربما كان لنا حظ في تتبع بعض الآراء على صفحات مجلة (الآداب) الغراء ، لسان حال الادب الفصيح ، ولا بأس ان كان ذلك على اسلوب درجت عليه مجلتنا (الآداب تستفتي) .

محمد توفيق مشموشي

تصور عمالقة الزمن :

الماضي ، والحاضر ، والآتي

تجتمع على مسرح الحياة

فاي حوار يدور بينهم ؟

واية شاعرية تقوى على انشاء هذا الحوار ؟

الدكتور سليم حيدر

يجيب على ذلك في مسرحيته الشعرية الخالدة

ألسنة الزمان